



مؤسسة إنكي للدراسات والبحوث

Enki Foundation for Studies and Research



# الرهان الكردي على لحظات انهيار الدول: من خذلان سوريا إلى مغامرة إيران

الدكتور حسين راغب الحسين

رئيس مجلس أمناء مركز الإصلاح للدراسات والبحوث الاستراتيجية في سورية



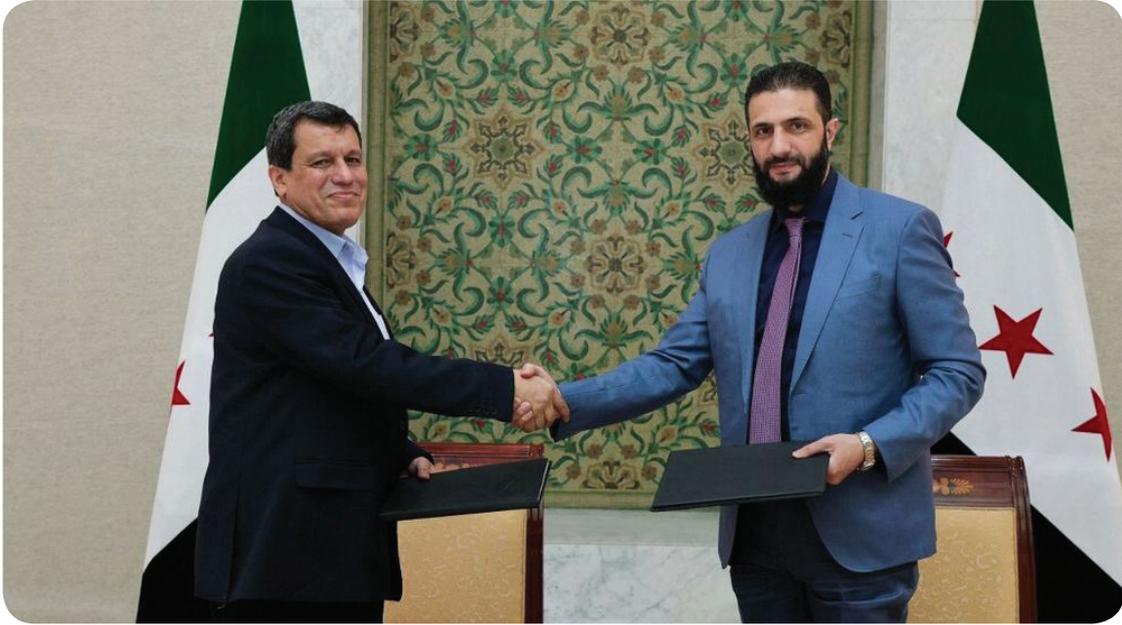
في كل مرة يدخل فيها الشرق الأوسط مرحلة اضطراب عميق، تعود المسألة الكردية إلى الواجهة بالطريقة ذاتها تقريباً: تحركات سياسية وعسكرية تتزامن مع ضعف الدولة المركزية، ورهان واضح على دعم القوى الخارجية. غير أن التجربة التاريخية خلال العقود الأخيرة تكشف نمطاً متكرراً من الحسابات الخاطئة التي تنتهي غالباً بنتائج عكسية على المشروع الكردي نفسه.

خلال الحرب السورية، برزت الإدارة الكردية في شمال سوريا بوصفها أحد أهم الفاعلين المحليين في المشهد العسكري والسياسي. وقد اعتمدت هذه التجربة بدرجة كبيرة على التحالف مع الولايات المتحدة التي وفرت دعماً عسكرياً وسياسياً واسعاً للقوات الكردية في إطار الحرب ضد تنظيمات متطرفة. في تلك المرحلة، بدا للكثير من القيادات الكردية أن اللحظة التاريخية مواتية لبناء كيان سياسي شبه مستقل يمكن أن يتحول لاحقاً إلى دولة.

غير أن المشكلة الجوهرية في هذه الاستراتيجية كانت الاعتماد المفرط على مظلة خارجية مؤقتة. فالسياسة الأمريكية في الشرق الأوسط لا تقوم على بناء كيانات قومية جديدة بقدر ما تقوم على إدارة توازنات القوى وفق مصالحها الاستراتيجية المتغيرة. ولذلك، عندما تغيرت أولويات واشنطن الإقليمية، بدأت المسافة السياسية بينها وبين الحلفاء الأكراد تتسع تدريجياً.



هذا التحول ظهر بوضوح مع تصاعد نفوذ هيئة تحرير الشام وتغير موازين القوى داخل سوريا، حيث وجد الأكراد أنفسهم في مواجهة واقع سياسي جديد: تراجع الحماية الدولية وتزايد الضغوط العسكرية والسياسية. وهكذا تحولت التجربة التي كانت تُقدّم بوصفها نموذجاً لحكم ذاتي مستقر إلى حالة من عدم اليقين الاستراتيجي.



الدرس الأهم هنا لا يتعلق فقط بسوريا، بل بطبيعة التحالفات التي تبنيها الحركات الكردية مع القوى الكبرى. فهذه التحالفات غالباً ما تكون تحالفات تكتيكية قصيرة الأجل، تنتهي عندما تتغير أولويات القوى الدولية أو عندما تصبح تكلفة استمرارها أعلى من فائدتها.

المفارقة أن هذا الدرس، الذي كان يفترض أن يدفع إلى مراجعة عميقة في الاستراتيجية السياسية الكردية، يبدو أنه لم يُستوعَب بالكامل. فاليوم، ومع تصاعد التوتر الإقليمي بين إيران من جهة وكل من الولايات المتحدة وإسرائيل من جهة أخرى، بدأت بعض التنظيمات الكردية المسلحة تعود إلى النمط ذاته من السلوك السياسي: التحرك في لحظة الصراع الدولي على أمل تحقيق مكاسب داخلية.



من أبرز هذه التنظيمات حزب الحرية الكردستاني، الذي ينشط في المناطق الكردية غرب إيران. ومع اشتداد الضغوط العسكرية والسياسية على طهران، بدأت مؤشرات على تحركات عسكرية وسياسية لهذا التنظيم، الأمر الذي يفسره كثير من المراقبين باعتباره محاولة لاستثمار اللحظة الإقليمية المضطربة.





من منظور جيوسياسي، يُنظر إلى هذا النوع من التحركات ضمن إطار الحروب غير المباشرة التي تستخدم فيها القوى الكبرى فاعلين محليين للضغط على خصومها. فالقوى الدولية غالباً ما تسعى إلى فتح جبهات داخلية في الدول التي تواجهها، سواء عبر دعم حركات مسلحة أو عبر تشجيع النزاعات الداخلية.

لكن المشكلة بالنسبة للحركات الكردية تكمن في أن هذا النوع من الرهانات يضعها في موقع شديد الحساسية داخل الدولة التي تنتمي إليها. فعندما يتزامن تحرك مسلح مع حرب خارجية تقودها قوى معادية للدولة، فإن هذا السلوك يُفسَّر في كثير من الأحيان باعتباره اصطفاً موضوعياً مع خصوم البلاد.



وهنا تحديداً تظهر الإشكالية السياسية الكبرى. فبدلاً من أن يُنظر إلى المطالب الكردية باعتبارها مطالب سياسية قابلة للنقاش ضمن إطار الدولة، تتحول هذه المطالب إلى قضية أمن قومي. وعندما تصل المسألة إلى هذا المستوى، تصبح الاستجابة السياسية محدودة للغاية، بينما تتصدر الأدوات الأمنية والعسكرية المشهد.

التجربة التاريخية في الشرق الأوسط تؤكد أن هذه المعادلة لا تنتهي عادةً لصالح الحركات الانفصالية. فالدول الإقليمية، رغم خلافاتها العميقة، تتفق غالباً على رفض أي مشروع يؤدي إلى تفكيك الحدود القائمة. ولذلك فإن أي محاولة لإنشاء كيان كردي مستقل تصطدم بسرعة بجدار إقليمي صلب يضم دولاً مختلفة المصالح لكنها متفقة على منع تغيير الخريطة الجيوسياسية.

من هذه الزاوية، تبدو التحركات الكردية الحالية في إيران استمراراً لنمط استراتيجي تكرر مرات عديدة في المنطقة: الرهان على لحظة ضعف الدولة وعلى دعم القوى الخارجية. غير أن هذا الرهان نفسه هو الذي قاد في مرات سابقة إلى تراجع حادة في العراق وسوريا، عندما تغيرت موازين القوى الإقليمية والدولية.





إن المعضلة الأساسية هنا ليست فقط في طبيعة الصراع، بل في القراءة السياسية للحظة التاريخية. فالحركات التي تبني استراتيجيتها على استثمار الأزمات الكبرى للدول قد تحقق مكاسب مؤقتة، لكنها غالباً ما تدفع ثمناً استراتيجياً باهظاً عندما تستعيد تلك الدول توازنها.

لهذا السبب، فإن المسألة الكردية في الشرق الأوسط تبدو اليوم وكأنها تدور في حلقة مفرغة: فرصة تظهر مع ضعف الدولة، تحالف خارجي يوفر دعماً مؤقتاً، ثم تراجع قاسٍ عندما تتغير التوازنات الدولية. وهي معادلة تفسر لماذا بقي مشروع الدولة الكردية، رغم كل التحولات التي شهدتها المنطقة، مشروعاً معلقاً بين الطموح السياسي والواقع الجيوسياسي الصلب.